

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا
محمد وآله وصحبه أجمعين.. وبعد:
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم،
وسلسلت الشياطين».

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في موضعين من صحيحه؛ الموضع الأول في كتاب الصيام باب «هل يقول رمضان أو شهر رمضان؟ ومن رأى كله واسعا» برقمي (١٨٩٨، ١٨٩٩)، والموضع الثاني في كتاب بدء الخلق باب «صفة إبليس وجنوده» برقم (٣٢٧٧)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصيام باب «فضل شهر رمضان» برقم (١٠٧٩) بثلاثة أسانيد، والنسائي في الصيام باب «فضل شهر رمضان».

شرح الحديث

قوله ﷺ: «إذا دخل رمضان». وفي رواية لمسلم: «إذا جاء رمضان»، وفي أخرى «إذا كان رمضان»، والمعنى واحد وهو دخول شهر رمضان، قال النووي رحمه الله: فيه دليل للمذهب الصحيح المختار الذي ذهب إليه البخاري والمحققون أنه يجوز أن يقال: رمضان من غير ذكر الشهر بلا كراهة، وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب، قالت طائفة: لا يقال رمضان على انفراده بحال وهذا قول أصحاب مالك، وزعموا أن رمضان من أسماء الله تعالى فلا يطلق على غيره إلا بقيد، وقال معظم الشافعية وابن الباقلاني من المالكية: إن كان هناك قرينة تصرف إلى الشهر فلا كراهة، وإلا فيكره، قالوا: فيقال: صمنا رمضان، قمنا رمضان... إلخ، والمذهب الثالث مذهب البخاري والمحققين أنه لا كراهة في إطلاق رمضان بقرينة وبغير قرينة، وهذا هو المذهب الصواب، والمذهب الأولان فاسدان لأن الكراهة لا تثبت إلا بنهي الشرع، ولم يثبت فيه نهي، وقولهم: إنه اسم من أسماء الله تعالى ليس بصحيح ولم يصح فيه شيء، وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف، وأسماء الله تعالى توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح. اهـ ملخصاً.

قال الحافظ في الفتح: واختلف في تسمية هذا الشهر، فقيل: لأنه ترمض فيه الذنوب، أي تحرق؛ لأن الرمضاء شدة الحر، وقيل: وافق ابتداء الصوم فيه زمناً حاراً. والله أعلم.

قوله ﷺ: «فتحت أبواب الجنة». وفي رواية أخرى في البخاري: «أبواب السماء»، وفي رواية لمسلم: «أبواب الرحمة»: أي فتحت أبواب الجنة لتستقبل الطائعين الصالحين، أو فتحت أبواب السماء لرفع الأعمال الصالحة لتصعد إلى ربها جل وعلا، أو فتحت أبواب الرحمة ومغفرة الذنوب، فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً

رمضان وتفتيح أبواب الجنة وتغليق أبواب النار وتصفيد الشياطين

بِسْمِ

زكريا الحسيني

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». أخرجه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». أخرجاه، ففتح أبواب الرحمة يدل على فتح أبواب العمل الصالح والطاعات التي تكون في رمضان، وقد لا تتاح في غيره كصيام نهاره، وقيام ليله وفعل الخيرات والانكفاف عن كثير من المخالفات، وكذا تفتيح أبواب السماء فيه فتح أبواب التوبة للتائبين الذين لم يعرفوا الصلاة في غير رمضان أو الصيام أو القيام أو الاعتكاف أو الصدقة أو غير ذلك من الأعمال، فكانهم تتاح لهم الفرصة، ويفتح لهم باب التوبة على مصراعيه، فمن وفق لاغتنام تلك الفرصة واندرج في سلك الطائعين العابدين المصلين الصائمين القائمين المتصدقين فإنه تغفر خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر بشرط ألا يشرك بالله شيئاً، فإنه من أدرك رمضان فلم يغفر له ذنبه أبعد الله تعالى كما ورد في الحديث، لأن من صامه إيماناً بالله عز وجل أي مؤمناً بالله، فإن الإيمان بالله تعالى شرط في قبول الأعمال، واحتساباً للأجر عند الله تعالى، أو كما قال الخطابي رحمه الله: احتساباً أي عزيمة أي قوي عزمه بالله فدفعه إلى الصيام فإن الله تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قامه كذلك مؤمناً بالله محتسباً الأجر عند الله تعالى غفر الله له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر مؤمناً محتسباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وكثرة أعمال البر فيه من قراءة القرآن والجود - اقتداء بالنبي ﷺ من معاني فتح أبواب الجنة، فإن رسول الله ﷺ كان أجود ما يكون في رمضان، وجوده ﷺ العظيم ارتبط بمدارسة جبريل القرآن معه ﷺ، فكان في هذه الحال أجود بالخير من الريح المرسله كما وصفه بذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، واعتكاف العشر الأواخر من رمضان من أعمال الخير التي قد لا تتاح في غير رمضان، وفيها انقطاع للعبادة للترؤد بالتقوى للدار الآخرة، وهذا أيضاً من تفتيح أبواب الرحمة في هذا الشهر، وختام الشهر بصدقة الفطر شكرًا لله على

التوفيق لهذه العبادات من أبواب الرحمة التي يفتحها الله تعالى لعباده.

وقوله ﷺ: «وغلقت أبواب النار»، وفي رواية لمسلم: «أبواب جهنم»: في معناه يبدو الصوم مهذباً للنفوس مربيًا على الفضائل مبعداً عن الرذائل؛ من انكفاف عن قول الزور والعمل به، وعن الجهل والسفه، قال ﷺ: «كما في الصحيح: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». وكما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم...» فالصوم يمنع من الرفث والفسوق، كما يمنع من السفه والجهل على الناس، وحتى لو تعرض له أحد بسب أو شتم أو مقاتلة فليقل لنفسه أو لمن سبه: إني صائم، أي يذكر نفسه أن صومه يمنعه من مقابلة الإساءة بمثلها، وإنما يدفعه صومه إلى الإحسان إلى من أساء إليه، كما أن الصيام يمنع أو يقلل الكثير من العادات الرذيلة كالتدخين فإن المدخن ينكف عن التدخين طيلة النهار لأنه صائم، والعاقل من يستعين بالله في رمضان على ترك التدخين مطلقاً ليلاً ونهاراً، فيكون ذلك انطلاقاً من رمضان إلى ما بعده لفعل الخير والانكفاف عن الشر، وكذلك أهل اللهو واللعب واللهو، فإنهم إذا انشغلوا في رمضان بقراءة القرآن ومدارسته وتعلم فقه الصيام والزكاة فإن ذلك يكون منطلقاً لهم للبعد عن اللغو واللهو، إلا من انتكست فطرته فعد الفن - من رقص وغناء ونحو ذلك - من العبادات كما قالت بعضهن: إن الرقص عبادة تتقرب به إلى الله. ففي هذا من الجهل المركب والفسق والبعد عن طاعة الله تبارك وتعالى وانعكاس وانتكاس في الفطر، نسأل الله العفو والعافية، ونعوذ به من الخذلان، فإن الكثيرين ممن بعدوا عن دين الله تعالى التبست عليهم الأمور، فينظرون إلى العمل لتحصيل الرزق واللعب والفن، وكل ما كان نحو ذلك على أنه عبادة يعتاضون بها عن العبادات الواجبة عليهم من صلاة وصيام وغيرهما.

وقوله ﷺ: «وسئسبت الشياطين». وفي رواية

لمسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم: «صُفِّدَت الشياطين». وفي رواية للنسائي: «وَتَغَلُّ فِيهِ مُرْدَةُ الشياطين».

قال ابن حجر في الفتح: قال الحلبي: يحتمل أن يكون المراد من الشياطين مسترقو السمع منهم، وأن تسلسلهم يقع في ليالي رمضان دون أيامه؛ لأنهم كانوا منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع فزيدوا التسلسل مبالغة في الحفظ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون من افتتان المسلمين إلى ما يخلصون إليه في غيره (أي في غير رمضان) لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشهوات، وبقراءة القرآن والذكر، وقال غيره: المراد بالشياطين بعضهم وهم المردة منهم.

وقوله: «صُفِّدَت» أي شُدَّتْ بالأصفاذ وهي الإغلال وهي بمعنى سُلِّسِلَتْ.

ثم نقل الحافظ في الفتح عن القاضي عياض قوله: يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علاقة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمة ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفيدين. قال: ويؤيد هذا الاحتمال الثاني قوله في رواية يونس عن ابن شهاب عند مسلم: «فتحت أبواب الرحمة». قال: ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتح الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنة، وغلقت أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصي الأيلة بأصحابها إلى النار، وتصفيد الشياطين عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات.

قال الرزين بن المنير: والأول أوجه، ولا ضرورة تدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره، وأما الرواية التي فيها: «أبواب السماء وأبواب الرحمة» فمن تصرف الرواة، والأصل أبواب الجنة بدليل ما يقابله وهو غلق

أبواب النار.

وجزم التوربشتي شارح المصابيح بالاحتمال الأخير، وعبارته: فتح أبواب السماء كناية عن تنزل الرحمة وإزالة الغلق عن مساعد أعمال العباد تارة ببذل التوفيق وأخرى بحسن القبول، وغلقت أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش والتخلص من البواعث على المعاصي بقمع الشهوات. وقال الطيبي: فائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحمام فعل الصائمين وأنه من الله بمنزلة عظيمة، وفيه إذا علم المكلف ذلك بإخبار الصادق ما يزيد في نشاطه ويتلقاه بباريحية. وقال القرطبي بعد أن رجح حمله على ظاهره: فإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيراً فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؛ فالجواب أنها إنما تقل عن الصائمين الذين يصومون الصوم الذي حوفظ على شروطه ورعيته آدابه، أو أن المصنف بعض الشياطين وهم المردة لا كلهم كما تقدم في بعض الروايات، أو أن المقصود تقليل الشرور فيه، وهذا أمر محسوس، فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، إذ لا يلزم من تصفيد جميعهم أن لا يقع شيء ولا معصية؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين؛ كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية.

وقال غيره: في تصفيد الشياطين في رمضان إشارة إلى رفع عذر المكلف، كأنه يقال له: قد كُفِّت الشياطين عنك فلا تعتل بهم في ترك الطاعات ولا فعل المعاصي. اهـ. ملخصاً من الفتح.

ونقل صاحب الفتح الرباني عن أبي بكر بن العربي المالكي قوله: وهذا مجاز جائز لا يقطع الحقيقة ولا يعارضها، وكلا المعنيين صحيحان موجودان والحمد لله.